OPEN ACCESS
Received: 19 -01 -2024
Accepted: 20- 04-2024

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

The Theme of "Hearing" in the Holy Quran: A Contextual Semantic Study in Light of Epistemology

Fatima Amer Mohammed Al-Wadaei*
alwadefaaa6mah@gmail.com

Abstract

The research delved into the theme of "hearing" in the Holy Quran, employing thorough study and analysis to elucidate its nuanced meanings across various contexts, guided by epistemological considerations. Structured into three sections, the study initially examines the term "hearing" in isolation, followed by its conjunction with "knowledge," and finally with "sight." Through semantic exploration within an epistemological framework, the research underscores that "hearing," when scrutinized as a cognitive instrument, traverses from sensory perception of sound to conscious engagement facilitating experiential learning. Notably, the study reveals that "hearing" serves as a pivotal conduit to cognitive understanding, particularly when intertwined with other sensory modalities. Furthermore, it highlights that "hearing" predominantly intertwines with "knowledge" in contexts concerning intentions and the depths of the human psyche, in contrast to its association with "sight," which pertains to visual perception, whether in worldly experiences or in deferred envisioning indicating the hereafter.

Keywords: The Theme of "hearing", Epistemology, Semantics, Phonology, Context.

* PhD Scholar in Linguistics, Department of Arabic Language and Literature, College of Human Sciences, King Khalid University, Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Wadaei, Fatima Amer Mohammed. (2024). The Theme of "Hearing" in the Holy Quran: A Contextual Semantic Study in Light of Epistemology, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *6*(2): 201 -217.

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508
DOI:https://doi.org/10.53286/arts.v6i2.1943

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2024/01/19م
تاريخ القبول: 2024/04/20م

مادة (س م ع) في القرآن الكريم: دراسة دلالية سياقية في ضوء نظرية المعرفة

فاطمة عامر محمد الوادعي*

alwadefaaa6mah@gmail.com

ملخص:

تناول البحث مادة (س م ع) في القرآن الكريم بالدراسة والتحليل، ويهدف إلى معرفة دلالاتها في السياقات المختلفة في ضوء نظرية المعرفة، وقد اقتضت مادة البحث أن يكون في ثلاثة مباحث: الأول: يشتمل على (لفظ السمع) منفردا، والثاني: يشتمل على (لفظ السمع) مقترنا بلفظ العلم، والثالث: يشتمل على (لفظ السمع) مقترنا بلفظ البصر، ودراسة اللفظ دلاليًا في ضوء نظرية المعرفة تعني دراسته بوصفه أداة للمعرفة، وقد تفاوتت مستويات السمع في القرآن ما بين السمع بمعناه الحسي، وهو: إدراك الأصوات، إلى معناه المعرفي وهو السمع الواعي المؤدي لحصول معرفة تجريبية، وكان من أهم نتائج البحث: أن لفظ السمع هو بوابة الإدراك المعرفي لاسيما إن تضافر مع الحواس الأخرى، وأن لفظ السمع المقترن بلفظ العلم غلب ذكره في السياقات المرتبطة بالنيات وخفايا الأنفس، على عكس لفظ السمع المقترن بلفظ البصر الذي جاء فيما كان في مجال رؤية الناس سواءً كانت في الدنيا أم دلالةً على الرؤيا المؤجلة في الآخرة.

الكلمات المفتاحية: مادة (س م ع)، نظرية المعرفة، علم الدلالة، علم الأصوات، السياق.

* طالبة دكتوراه في اللغويات - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية العلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد - المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: الوادعي، فاطمة عامر محمد. (2024). مادة (س م ع) في القرآن الكريم: دراسة دلالية سياقية في ضوء نظرية المعرفة، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، 6*(2): 201-217.

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة (CC BY 4.0) Attribution 4.0 International، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

مقدمة:

القرآن الكريم هو المعجزة اللغوية الخالدة، ودراسة ألفاظه كانت مادة لكثير من الأبحاث في كثير من المجالات اللغوية وغير اللغوية كالإعجاز العلمي، وهذا البحث يركز على جذر لغوي واحد هو الجذر (س م ع) بجميع اشتقاقاته، والتي وردت في القرآن مائة وخمسا وثمانين مرة، بصيغ متنوعة، وهي مرتبة حسب الكثرة وفق الترتيب **الآتي**: صفة مشبهة، فعل مضارع، فعل ماض، مصدر، فعل أمر، صيغة مبالغة، اسم فاعل، اسم مفعول (عبد الباقي، 1463، ص 358- 361).

والسمع في هذا البحث يُدرس في ضوء نظرية المعرفة أي بوصفه أداة للمعرفة، والجذر اللغوي للسمع في القرآن -بكل صيغه- جاء في شكلين، فهو إما منفردٌ وإما مقترنٌ بالبصر أو العلم أو القلب أو الفؤاد، وسيحصر البحث نماذج هذه الأشكال، مع ذكر ما يتضح به المراد من الشواهد.

والبحث يسلط الضوء على جانب من الجوانب الدلالية للأساليب القرآنية، ويحث على مستوى أعلى من الإدراك المعرفي، وتمييز دلالات السمع المتنوعة في القرآن الكريم، والتعرف على بعض متلازماته اللفظية.

ومن أسباب اختيار البحث:

1. كثرة ورود الجذر اللغوي (س م ع) واشتقاقاته في القرآن الكريم.
2. ملاحظة وجود متلازمات لفظية لهذا الجذر تكررت في أكثر من موضع في القرآن الكريم.
3. تنوع دلالات الجذر تبعا لتنوع السياقات الوارد فيها، مع ثبات نسبي لدلالته في كل سياق.

ويهدف البحث إلى:

1. تصنيف جميع الآيات حسب انفراد لفظ السمع بالذكر أو اقترانه بالعلم أو البصر أو غيرهما.
2. ذكر بعض الآيات نماذجَ لكل نوع.
3. محاولة تحديد الدلالة العامة للآية والدلالة الخاصة للمفردة الدالة على السمع.
4. محاولة تمييز المستوى السمعي الذي تدل عليه الآية في ضوء نظرية المعرفة.

ويسعى إلى الإجابة عن الآتي:

السؤال الرئيس:

ما أنواع السمع في القرآن الكريم؟

الأسئلة الفرعية:

- ما أشكال ورود الجذر (س م ع) في القرآن الكريم في سياق الإدراك المعرفي؟
- ما السياقات المحددة لكل شكل من أشكال وروده؟
- ما الدلالة العامة للآية؟

- ما الدلالة الخاصة بالصيغة؟

الدراسات السابقة:

- فيبريانا، أنا دوي اثنا، دلالة أفعال السمع: سمع واستمع وأنصت وصغى في القرآن الكريم (دراسة تحليلية دلالية عن لفظ سمع واستمع وأنصت وصغى وتضمينها التربوي)(رسالة ماجستير)، إشراف: د.ندوس أثيف سيف الرحمن، د. كارمان، 2019- 1440هـ، جامعة سونان غونوبج جاتي الإسلامية الحكومية باندونج، إندونيسيا.

هذه الرسالة تختلف عن بحثي مضمونًا وغاية، فهي تركز على الفروق بين معاني الألفاظ الواردة في موضوع البحث، وتهدف إلى معرفة التضمين التربوي لها، بينما يركز بحثي على مادة (سمع) دون مرادفاتها، ويهدف إلى دلالتها في ضوء نظرية المعرفة.

- الأسمر، سهام محمد، ألفاظ العقل والجوارح في القرآن الكريم (دراسة إحصائية دلالية) (رسالة ماجستير)، 2007م، جامعة النجاح الوطنية بنابلس، فلسطين.

يلتقي بحثي مع هذه الرسالة في اهتمامهما بالجانب الدلالي، ولكنهما يختلفان في كونها أوسع في المادة حيث تضم جميع ألفاظ العقل والجوارح ومنها السمع، وبحثي يركز على الدلالة الإدراكية المعرفية وهي مجال نظرية المعرفة.

وقد جاء البحث في ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد، وتتلوها خاتمة تشتمل على أهم النتائج:

المقدمة: تشتمل على أهمية البحث، وأسبابه، وأهدافه، وتساؤلاته، ومنهجه، ودراساته السابقة.

التمهيد: يشتمل على معنى السمع، بوصفه إحدى الحواس عند الفلاسفة.

المبحث الأول: يشتمل على (لفظ السمع) منفردا.

المبحث الثاني: يشتمل على (لفظ السمع) مقترنا بلفظ العلم.

المبحث الثالث: يشتمل على (لفظ السمع) مقترنا بلفظ البصر.

الخاتمة: تشتمل على أهم النتائج.

التمهيد:

أولا: مفهوم السمع في اللغة والاصطلاح

في اللغة: "السين والميم والعين أصل واحد، وهو إيناس الشيء بالأذن، من الناس وكل ذي أذن" (ابن فارس، 1979: 3/ 102)، و"السمع حس الأذن، ويجمع على أسماع وأسمع" (الفيروزآبادي، 1426: 1/ 731)، ويطلق السمع على الواحد والجمع، كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة 7]، لأنه في الأصل مصدر قولك: سمعت الشيء سمعا وسماعا

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

(الجوهري، 1987)، سَمِع كعلِم، سمْعًا، ويكسر، أو بالفتح: المصدر، وبالكسر: الاسم، وسماعًا وسماعةً وسماعيةً، وتسمَّع واسَّمَّع، والسَّمعة: فَعْلة من الإسماع، وبالكسر: هيئته، وسمعك إلي، أي اسمع مني، والمِسْمَع كمِنبَر: الأذن، وتجمع على مسامع (الفيروزآبادي، 1426: 1/ 731)، والسِمْع بالكسر: الذكر الجميل، يقال قد ذهب سِمعُه في الناس، أي ذكره الجميل، ويقال سَمَاع بمعنى استمع، ويقال سمَّعت بالشيء، إذا أشعته ليُتكلم به (ابن فارس، 1979: 3/ 102).

في الاصطلاح: "هو قوة مودعة في العصب المفروش في مقعر الصماخ تدرك بها الأصوات بطريق وصول الهواء المتكيف بكيفية الصوت إلى الصماخ" (الجرجاني: 1403: 1/ 121، وصلبيا، 1982، ص 672).

ثانيا: السمع في نظرية المعرفة

نظرية المعرفة هي كل ما يتصل بالمعرفة، ومصادرها، وإمكانياتها، وما إلى ذلك، وهي ذات جذور في الثقافة اليونانية تمتد إلى أفلاطون والقول بعالم المثل، وأنها المصدر الرئيس للمعرفة، ليأتي بعده أرسطو ويعدل على آراء أستاذه ويؤكد أهمية الحواس، وأن من فقدَ حاسة فقدَ علما من العلوم، وقد أشار فلاسفة المسلمين إلى أهمية الحواس، ورأوا "أنها صلة الوصل بين الذات والعالم، ولذلك يقوم الدماغ، بعد كل إفاقة، بإعداد أقسامه المختصة؛ لتلقي مكالمات الحواس التي تصل إليها، دون انقطاع طيلة فترة اليقظة، رغم الاختلافات الكيفية الكبيرة التي توجد بين إحساسات الحواس، إلا أن العقل يكوّن من مجموعها صورة المحيط الذي يعيش فيه" (الأسمر، 2007، ص7).

وبقيت الإشارات إلى أهمية الحواس حتى نشأ المذهب الحسي أو التجريبي لجون لوك في العصر الحديث، وألف أول بحث في نظرية المعرفة، وهو (مقالة في العقل البشري)، وجاء بعده هيوم ليؤكد استحالة أن تصدر أي فكرة عن غير الحس حتى الأفكار الخيالية التي كان ينسبها العقليون للعقل، فـ(جبل ذهبي) مثلا: عبارة عن ربط فكرتين قابلتين للارتباط هما فكرتا الذهب والجبل، وقد ألفناهما من قبل عن طريق الحواس (الكرساوي، 2018، ص 83، 84).

والسمع هو إحدى تلك الحواس بل ثانيها بعد البصر في الأهمية، وهناك من قال إنها أهم منها، مستدلين بتقدمها على البصر وغيره في القرآن، ومما يدل على أن البصر أهم قول الرسول ﷺ: (ليس الخبر كالمعاينة)، والرأي الراجح في ذلك "أن إدراك السمع أعم وأشمل وإدراك البصر أتم وأكمل فهذا له التمام والكمال وذاك له العموم والشمول فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص" (ابن تيمية، 1432: 4/ 214).

ومن آيات السمع التي تربط بين السمع والإدراك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق 37]، فهنا القلب بمعنى العقل، (ألقى السمع) بمعنى غاية في الإصغاء حتى كأنه يرمي بشيء

ثقيل من علو إلى سفل، فجمعت الآية بين السمع والعقل باعتبارهما أداتين من أدوات الذكرى التي ينتفع بها (البقاعي، د.ت: 18/ 436).

المبحث الأول: لفظ السمع منفردا

لفظ السمع في القرآن الكريم على اختلاف صيغه جاء في الغالب مقترنا إما بلفظ البصر وإما بلفظ العلم وإما بلفظ القلب أو بلفظ الفؤاد، لكنه أيضا جاء منفردا وعندما كان يُذكر منفردا فإنه في الغالب يعني السمع المباشر، أو إدراك الأصوات من خلال الأذن، لا يتجاوزه إلى مستوى السمع بفهم وإدراك، وهذا جاء في سياقات محددة منها:

- استراق الجن السمع من السماء، ومن ذلك: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴾ [الحجر 18]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡـَٔانَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: 9].
- سماع القرآن للمرة الأولى، ثم قد ينتقل السامع للمستوى التالي من السمع المدرك وقد يكون كأنه لم يسمعه، ومن الآيات الدالة على سماع القرآن للمرة الأولى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾[التوبة: 6].
- سماع الأخبار، كما في قصة امرأة العزيز،﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ ﴾ [يوسف: 31]، وعلى لسان قوم إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: 6].
- في وصف الجنة، وهدوئها، وأن ساكنيها لا يسمعون ما يكدر صفو نعيمهم، والآيات كثيرة في ذلك، منها قوله تعالى: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴾ [الغاشية: 11]، وقوله: ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ [الواقعة: 25].
- في وصف صوت جهنم، يقول تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: 12]، وقال: ﴿ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: 7].

وغيرها من السياقات التي لا نريد الاسترسال فيها، فما يخص نظرية المعرفة هو المستوى الأعلى من الإدراك السمعي، كنفي سمع القرآن عمن لم ينتفع به، أو نفي القدرة عن سمعه، وإنما المقصود عدم القدرة على سمعه واستيعابه كما يجب، ولا يعني مجرد إدراك الأصوات، ومن هذه الآيات التي مثلت السمع المحقق للمعرفة كما يجب والتي كان السمع فيها منفردا، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: 22].

نلاحظ في الآية عددًا من الأمور:

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

1. أنها فيها مقابلة بين الجزء الأول (وما يستوي الأحياء ولا الأموات) والجزء الثاني (إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور)، فالأحياء تقابل (من يسمعه الله)، والأموات تقابل (من في القبور).
2. تشبيه المؤمنين الذين يسمعون كلام الله ويدركونه ويؤمنون به بالأحياء، وتشبيه الكفار بأهل القبور، "أَيْ هُمْ بِمَنْزِلَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ فِي أَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَهُ وَلَا يَقْبَلُونَه" (القرطبي، 1964: 14/ 340).
3. التعبير بـ (من في القبور) بدلا من (الموتى) " لِأَنَّ مَن في القُبُورِ أعْرَقُ في الِابْتِعادِ عَنْ بُلُوغِ الأصْواتِ لِأنَّ بَيْنَهم وبَيْنَ المُنادِي حاجِز الأرْضِ، فَهَذا إطْنابٌ أفادَ مَعْنًى لا يُفِيدُهُ الإيجازُ بِأنْ يُقالَ: وما أنْتَ بِمُسْمِعٍ المَوْتى" (ابن عاشور، 1984: 22/ 295).
4. الآية فيها دلالة على أن السمع الواعي هو بوابة المعرفة الحقة الموصلة للهداية والإيمان.

ومن الآيات التي جاء فيها السمع منفردا ودلت على السمع الواعي آيات سورة النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [النمل: 81]، وهي تشبه الآية السابقة، إلا أن فيها دلالات أكثر ووصفا أبلغ لمدى إعراض هؤلاء الكفار، ونلاحظ فيها عدة ملاحظات:

1. وُصف الكفار في هذه الآيات بثلاث صفات: موتى، وصُم، وعُمي، لأنهم كالموتى لا يستطيعون السمع، وكالصم بل زاد فوق الصمم أنهم مدبرون تأكيدا ومبالغة على مدى إعراضهم، فالأصم إن كان في حضرتك قد يفهم بالإشارة لكن لا يمكن أن يفهم إن كان مدبرا (الزيد، 1416: 5/ 702)، وعمي عن رؤية طريق الحق والهداية.
2. بعد أن نفى الله السمع عمن وصفهم بتلك الأوصاف قال: (إن تُسمِع) "أَيْ ما تُسْمِعُ إسْماعًا يُجْدِي السّامِعَ نَفْعًا" (الآلوسي، 1415: 10/ 232) (إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) وهؤلاء المؤمنون هم من سلموا من تلك الأوصاف، ووصفوا بالمسلمين وليس أي وصف آخر؛ لأن (مسلمين) بمعنى مستسلمين منقادين للحق خاضعين له، فهم بهذه الصفة يمكنهم سماع الحق لأنهم تعاملوا معه باستسلام لا بتكبر ولا بمعرفة اتباعية (الحميري، 2013، ص267) لما قال آبائهم، بل تجردوا من كل معارفهم السابقة ليسمعوا الحق فيتبعوه بكامل إدراكهم.
3. في الوصف الثالث (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم)، عدل عن النفي المكرر في الوصفين السابقين "الواقعين على مسندين فعليين، إلى تسليط النفي هنا على جملة اسمية للدلالة على ثبات النفي، وأكد ذلك الثبات بالباء المزيدة لتأكيد النفي، ووجه إيثار هذه الجملة بهذين التحقيقين هو أنه لما

أفضى الكلام إلى نفي اهتدائهم وكان اهتداؤهم غاية مطمح الرسول ﷺ كان المقام مشعرا ببقية من طمعه في اهتدائهم حرصا عليهم فأكد له ما يقلع طمعه، وهذا كقوله تعالى ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[القصص: 56]" (ابن عاشور، 1984: 20/ 37).

كما نجد نفس الأوصاف بنفس الألفاظ في آيتين من سورة الروم، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [الروم: 52- 53]، وهذا تأكيد من القرآن على أن ليس كل من يصله الصوت يعتبر مستمعا، فالسمع يحتاج أناسا أحياء سامعين مبصرين للحق لينتفعوا بما يسمعون.

وإذا رأينا الكفار هنا يوصفون بالصمم، فهم في مواضع أخرى يوصفون بأنهم لا يستطيعون السمع، وفي مواضع بنفي السمع عنهم، ولا جدال في أنهم كانوا يسمعون، لكن القرآن يؤكد على السمع المعتبر الذي يُعْمِل فيه الإنسان عقله ليميز الهدى من الضلال والحق من الباطل، فيقول الله تعالى: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: 4] "أي: يفعلون فعل من لا يسمع فهم لا يقبلون شيئا مما دعا إليه وحث عليه" (البقاعي، د.ت: 17/ 158)، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: 21]، فـ(سمعنا) بمعنى سماع الأذن أو إدراك الصوت، أما السمع الذي نفي عنهم فهو السمع بتدبر وتفكر "فكانوا بمنزلة من لم يسمع وإن أدركوا الأصوات" (القرطبي، 1964: 7/ 388).

بقي أن نشير في السمع المنفرد إلى أحد السياقات الواردة في القرآن، وهو سياق حديث الله جل وعلا عن نفسه بصيغة المتكلم، وهو سياق خاص نؤمن فيه بالسمع صفة لله كما يليق بعظمته بلا تكييف أو تشبيه، ومن تلك المواضع، قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: 15]،﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: 181].

وأيضا هناك نوع من السياقات التي جاءت فيها الطاعة أو العصيان نتيجة مباشرة للمسموع، كقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: 7]، وقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البقرة: 93].

وهذا يدل على السمع المبني على الاعتقادات السابقة، فالطاعة من المؤمنين هنا تكون مباشرة، قد تجاوزت مرحلة التجريب والتفكير التي كانت في مراحل سابقة فتكونت لديهم عقيدة جعلت أوامر الله أمرًا معروفًا لديهم لا يحتاج تفكيرًا ولا تأجيلًا، وفي المقابل المعصية عند الكفار مباشرة لم يحكموا فيها عقلًا ولم يعملوا فهمًا، عصوا مباشرةً نتيجة لعقيدتهم السابقة المبنية على رفض أي أمر يقتضي تخليهم عن معرفتهم الاتباعية لآبائهم، فكلا النتيجتين، سواء أدت إلى الحق أم إلى الباطل، ليست من نوع السمع القائم على

المعرفة التجريبية، التي يفترض فيها أن يتعامل الإنسان، مع المعروف بشكل مباشر، في علاقة جدلية مركبة؛ حتى تحصل له المعرفة اليقينية.

المبحث الثاني: لفظ السمع مقترنا بلفظ العلم

إن لفظ السمع في القرآن -كما ذكرت ذلك آنفا- كان في غالبه مقترنا بلفظ آخر، وأغلب اقترانه كان بلفظ العلم، وكانا بصيغة الصفة المشبهة (السميع العليم) وكانا صفة لله في كل المواضع، وسبقت لفظةُ السميعِ لفظةَ العليمِ في كل المواضع أيضًا، فالسميع سمع الله لما ظهر على الألسن، ولما خفي في القلوب من حديث للنفس، والعليم تأكيد لعلمه بما خفي، فلا يُظن من السياق اقتصاره على المسموع لفظًا، وقد اختص هذا التركيب بسياقات محددة ميزته عن (السميع البصير)، فالسميع العليم جاءت في السياقات التي لا يستطيع البشر تأكيدها وهي سياقات متصلة بالنية، مثل:

- تغيير الوصية بعد سماعها، قال الله تعالى: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 181]، فالسماع الأول (بعد ما سمعه) هو سماع الأذن، وجاءت (سميع عليم) هنا بمعنى إن الله "سميع لوصيتكم التي أمرتكم أن تُوصوا بها لآبائكم وأمهاتكم وأقربائكم حين توصون بها، أتعدلون فيها على ما أذِنت لكم من فعل ذلك بالمعروف، أم تَحيفون فتميلون عن الحق وتجورون عن القصد، عليمٌ بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق، والعدل، أم الجور والحيف" (الطبري، 2001: 3/ 399).
- اتخاذ اليمين سبيلا في المعصية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 224]، أي: لا تجعلوا الله حاجزا أو مانعا لكم عن عمل الخير كونكم حلفتم عليه، فيكون المراد بالأيمان الأمور المحلوف عليها، وعبر عنها بالأيمان لتعلقها بها، أو لأن اليمين بمعنى الحلف، تقول: حلفت يمينا كما تقول حلفت حلفا، سمي المفعول بالمصدر (الآلوسي، 1415: 1/ 523)، فجاءت (سميع عليم) هنا كأنّه يقول: سميع لكم عندما حلفتم، عليم بنيتكم عندما حنثتم بأيمانكم وأن غايتكم فعل الخيرات التي حرمتم أنفسكم منها بالأيمان في غير موضعها.
- العزم على الطلاق، قال تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٧]، وهذه الآية تدل على وجوب العزم على الطلاق بعد انتهاء مدة الألية، وليس كما قالت بعض المذاهب أن الطلاق يقع لمجرد انقضاء مدة الأربعة الأشهر التي حددها القرآن، والعزيمة أمر داخلي لا يعلم بها -غير صاحبها- إلا الله؛ لذلك قال الله: (سميع عليم) عليم بنياتهم، أما (سميع) فيدل على أنه يقتضي مسموعا والقول هو الذي يسمع.

- القتال في سبيل الله، وقد جاءت في هذا الموضوع أكثر من آية لأن النية هي ما تحدد إن كان القتال في سبيل الله أو غيره، واقترن في الغالب بالسميع بمعنى السميع لدعواتكم والعليم بنياتكم، أو للدلالة على كل ما يقال عن القتال، ومواقع المقاتلين وما إلى ذلك فإن الله مطلع على كل شيء سامع لكل شيء، عالم بما ظهر على الألسن أو خفي في القلوب، ومن هذه الآيات على سبيل المثال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 121].
- تغير ما في النفس، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53]، أي ذلك بأن الله يعلم ما يضمره الناس وما يعملونه ويعلم ما ينطقون به فهو يعاملهم بما يعلم منهم، وذكر صفة سميع قبل صفة عليم يومئ إلى أن التغيير الذي أحدثه المعرض بهم متعلق بأقوالهم وهو دعوتهم آلهة غير الله تعالى (ابن عاشور، 1984: 10/ 45)، وقد كانت الآية تحذيرا لقريش بعد أن ذكر في الآية السابقة أنه عذب آل فرعون ومن قبلهم بما كفروا، فبين لهم أن ما تكنه الأنفس هو ما يحدد المصير، والله عليم بكل هذا.
- الاستعاذة من وسوسة الشيطان، وكانت في آيتين متطابقتين لم يزد إلا أن الصفتين –السميع العليم- عرفتا بالألف واللام وزيد قبلهما ضمير الفصل، الأولى في الأعراف يقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]، والثانية في فصلت، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36].

وفي الفرق بين الآيتين نكتة لطيفة ذكرها ابن كثير ترتبط بما يسبق الآيتين، حيث يقول: "لكن الذي ذكر في الأعراف أخف على النفس مما ذكر في سورة فصلت؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسيء، فتتلذذ النفس من ذلك، ولا انتقاد له إلا بمعالجة، ويساعدها الشيطان في هذه الحال، فتنفعل له وتستعصي على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال :﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾" (ابن كثير، 1420: 7/ 181)، والسميع هنا بمعنى السميع لاستعاذتك أو السميع لوسوسة الشيطان لك، العليم بالأمرين، وبما تشعر به حين امتثالك لأمر الله إن كان بالإعراض عن الجاهلين أو الإحسان إليهم.

- الجنوح للسلم في الحرب، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: 61]، هذه الآية تحث الرسول ﷺ على الصلح إن مال الكفار إليه. قيل هي خاصة ببني قريضة وقيل عامة لكل الكفار، والأغلب على أنها منسوخة بآية التوبة: ﴿فاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ﴾، والله سبحانه وتعالى يطمئن الرسول ﷺ إن خشي أن يغدروا به، فالله هو (السميع):

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

يسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع، (العليم) : يعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه ويرد كيدهم في نحرهم (الآلوسي، 1415: 5/ 223).

- السماح للمظلوم بالجهر بالسوء، يقول الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148]، فيأذن للمظلوم أن يأخذ حقه لكنه يؤكد له بإن الله سميع عليم، تحذيرا للظالم حتى لا يظلم، وللمظلوم حتى لا يتعدى الحد في الانتصار، فهو سميع بما تجهر به، وسميع بما قيل لك، فإن شئت أن تنتقم لنفسك فلك ذلك، ثم أتبع هذا بقوله: (إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء) فندب إلى العفو ورغب فيه، والعفو من صفة الله تعالى مع القدرة على الانتقام (القرطبي، 1964: 6/ 4).

ولعل فيما تقدم من نماذج ما يوضح نوع السياقات التي ورد فيها هذا التركيب-السميع العليم أو سميعا عليما-، وقد تكرر في ثلاث وثلاثين آية كانت جميعها تشمل السمع للصوت الظاهر والباطن أو الخفي على حدٍ سواء.

المبحث الثالث: لفظ السمع مقترنا بلفظ البصر

اقتران السمع بالبصر كان كثيرا سواء كان وصفا لله جل وعلا بالسميع البصير، أو صفة للإنسان، أو دلالة على قدرة الله، أو سبيلا للمعرفة، وهذا الأخير هو الأكثر اتصالا بنظرية المعرفة، فأحيانا يتصل السمع بالبصر فقط، وأحيانا يتصل بالبصر والفؤاد، وأحيانا يتصل بالبصر والقلوب، وفي آيتين اتصل بالبصر والجلود، وفي آيتين اتصل بالقلب، وفي آيتين اتصل بالعقل.

نشير أولا إلى بعض الآيات التي ختمت بالتركيب (السميع البصير)، التي كانت في غالب سياقاتها في مجال رؤية وسمع الناس، ولا يغلب عليها الجانب الغيبي كما في سياقات (السميع العليم):

- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: 61]، وقد جاء في تفسير (سميع بصير) في الآية عدة تأويلات:

"﴿وأنَّ اللَّهَ﴾ بِجَلالِهِ وعَظَمَتِهِ ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما يُمْكِنُ أنْ يُسْمَعَ ﴿بَصِيرٌ﴾ أيْ مُبْصِرٌ عالِمٌ لِما يُمْكِنُ أنْ يُبْصَرَ دائِمُ الِاتِّصافِ بِذَلِكَ فَهو غَيْرُ مُحْتاجٍ إلى سُكُونِ اللَّيْلِ لِيَسْمَعَ، ولا لِضِياءِ النَّهارِ لِيُبْصِر" (البقاعي، د.ت: 13/ 80).

﴿وأن الله سميع﴾ بكل المسموعات التي من جملتها ما يقول المعاقب ﴿بصير﴾ بكل المبصرات التي من جملتها ما يقع منه من الأفعال لتتمة حكم العقاب، فلا بد للناصر من القدرة على نصر المظلوم ومن العلم بأنه كذلك (الآلوسي، 1415: 9/ 181)، وفي هذا القول الأخير ربط بين هذه الآية وسابقتها ﴿ذَلِكَ ومَن عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وهذه الآية

نزلت في قوم من المشركين لقوا قوما من المسلمين في شهر الله المحرم فاعتدوا عليهم علما منهم أن القتال في هذا الشهر محرم، فما زالوا بهم حتى انتصروا لأنفسهم، ثم خافوا من غضب الله عليهم فأنزلت هذه الآية تنبئهم بعفو الله عنهم (الرازي، 1420: 23/ 245).

أما ابن عاشور فيرى أن الليل والنهار هنا بمعنى الإيمان والكفر؛ ولذلك تقدم (يولج الليل في النهار)، وكأن فيه إيماءً بظهور النهار بعد الليل كما ظهر نور الدين بعد ظلمة الشرك (ابن عاشور، 1984: 17/ 315)، ولما كان دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل مما يمكن إدراكه ورؤيته جاء السميع مقترنا بالبصير لا بالعليم.

- قول الله تعالى: ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]، هذه الآية تحدثت عن خولة بنت ثعلب على أصح الأقوال حين ظاهر منها زوجها، تقول عائشة ﵂: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفى علي وسمع الله كلامها (ابن جزي، 1416: 2/ 351).

ولذلك قال الله (سميع) تأكيدا على سعة سمع الله جل وعلا سمعا يليق بجلاله، وقال (بصير) فهو إلى جوار سمعه للحوار يرى "ما يُقارِنُهُ مِنَ الهَيْئاتِ الَّتِي مِن جُمْلَتِها رَفْعُ رَأْسِها إلى السَّماءِ وسائِرُ آثارِ التَّضَرُّعِ" (الآلوسي، 1415: 14/ 199)، كما يرى حالها وحال صغارها الذي كانت تصفه، وهي تتحاور مع رسول الله وتشتكي إلى الله فتقول: إن لي صغارا إن ضممتهم إلي جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا، فالله يطمئنها أنه سامع مبصر لكل شيء.

أما الآيات التي جمعت بين السمع والبصر صفة أو فعلا للإنسان فقد كانت تعني السمع والبصر الواعيين المدركين، كأهم أدوات المعرفة، وهما غالبا اجتمعا بالفؤاد يليه القلوب والجلود والعقول، وفي كلٍ لم يرد السمع إلا مفردا، في حين أن ما يقترن به يختلف فحينا يكون جمعا وحينا مفردا، وسنعرف ذلك أكثر من خلال تحليلنا لبعض النماذج:

1. قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12]، تتحدث الآية عن الكفار يوم البعث عندما رأوا ما كانوا يكذبون به حقيقة وواقعا، فهم اليوم يقولون (أبصرنا وسمعنا)، "أيْ صِرْنا مِمَّنْ يُبْصِرُ ويَسْمَعُ، وحَصَلَ لَنا الِاسْتِعْدادُ لِإدْراكِ الآياتِ المُبْصَرَةِ والآياتِ المَسْمُوعَةِ" (الآلوسي، 1415: 11/ 125)، بعد أن كانوا يقولون في الدنيا ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: 5].

فكما عرفنا في أجزاء سابقة من البحث أن القرآن قد نفى عنهم السمع أو القدرة عليه، فها هو هنا يثبت لهم السمع، وكأن في ذلك توضيحا لهذين المستويين من السمع فهم كانوا يسمعون في الدنيا

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

لكن سمعهم لم يبلغ حد اليقين الذي أوصله لهم السمع والبصر هنا، فهاهم يقولون: (إنا موقنون) فالسمع والبصر هنا كوَّن عندهم معرفة موصلة لليقين؛ لأن ما كانوا يسمعون عنه وينكرونه أصبح أمامهم عيانا، وقد سُبقت الآية بمجموعة من الدلائل التي كان بإمكانهم تعقلها لليقين والإيمان لكنهم ظلوا ينكرون، ويتكبرون، حتى وصلت ساعة الحق، فيطلبون الرجوع، ثم سردت الآيات ما كان المؤمنون يقومون به من صلاة وقيام ودعاء، فهل من العدل أن يتساووا بهم.

2. قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 26]، وقال: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [مريم: 38]، في هاتين الآيتين اقترن السمع بالبصر في صيغتي التعجب، آية الكهف تتحدث عن سعة علم الله فهي بمعنى "لَا أَحَدٌ أَبْصَرُ مِنَ اللَّهِ وَلَا أَسْمَعُ" (القرطبي، 1964: 10/ 388)، "ويُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ المَعْنى :﴿أبْصِرْ بِهِ﴾ أيْ: بِوَحْيِهِ وإرْشادِهِ، وأسْمِعْ بِهِ العالَمَ، فَتَكُونانِ أمْرَيْنِ لا عَلى وجْهِ التَّعَجُّبِ" (ابن عطية، 1422: 3/ 510).

ولعل سبق البصر للسمع هنا كان لأن حال أهل الكهف معجزة مرئية أكثر منها سمعية، فيؤكد الله جل وعلا أن بصره وسمعه قد وسعا كل الغيبيات "فانْسَدَّ بابُ العِلْمِ عَنْ غَيْرِهِ إلّا مِن جِهَتِهِ فَقالَ تَعالى :﴿ما لَهُمْ﴾ أيْ لِهَؤُلاءِ السّائِلِينَ ولا المَسْؤُولِينَ الرّاجِمِينَ بِالغَيْبِ مِن أصْحابِ الكَهْفِ ﴿مِن دُونِهِ﴾ وأعْرَقَ بِقَوْلِهِ تَعالى :﴿مِن ولِيٍّ﴾ يُجِيرُهم مِنهُ أوْ بِغَيْرِ ما أخْبَرَ بِهِ ﴿ولا يُشْرِكُ﴾ أيِ اللَّهُ ﴿فِي حُكْمِهِ أحَدًا﴾ فَيَفْعَلُ شَيْئًا بِغَيْرِ أمْرِهِ أوْ يُخْبِرُ بِشَيْءٍ مِن غَيْرِ طَرِيقِهِ" (البقاعي، د.ت: 12/ 47)، فهو المبصر لحال الكهف السامع للراجمين بالغيب، الذين يعجز بصرهم وسمعهم عن إدراك ما لم يخبرهم به الله.

أما آية سورة مريم، فقد اقترن فيها السمع بالبصر وكانا في صيغة تعجب لكنها تحكي عن حال الكافرين يوم القيامة، والتعجب في أصح الأقوال على لسان النبي والمؤمنين فالتعجب في حق الله محال، والمعنى أن أسماعهم وأبصارهم يومئذ جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صما وعميا في الدنيا (الرازي، 1420: 21/ 540)، ونلاحظ تقدم السمع على البصر هنا وذلك لأن الوضع يوم القيامة كان شيئا غيبيا، وكانت معرفته في الدنيا قاصرة على المسموع من الوحي، فكأنهم في تلك الحال يتذكرون ما كانوا يسمعونه ويعرضون عنه، ويكونون في أقصى حالات الإدراك السمعي لأنهم رأوا ما كانوا ينكرون، ثم الإدراك البصري ثانيا لأنهم يرونه لأول مرة.

3. ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

[الأحقاف: 26]، وقوله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ يسمعون به مواعظ ربهم، وأبصارا يبصرون بها حجج الله، وأفئدة يعقلون بها ما يسرّهم وينفعهم ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يقول: فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد إذ لم يستعملوها فيما أعطوها له، ولم يُعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله، ولكنهم استعملوها فيما يقرّبهم من سخطه (الطبري، 2001: 22/ 132).

وقد أفرد السمع دون الأبصار والأفئدة؛ لأن السمع مصدر دال على الجنس فكان في قوة الجمع، فعم بإضافته إلى ضمير المخاطبين ولا حاجة إلى جمعه، والأبصار جمع بصر، وهو في اللغة العين على التحقيق، وقيل: يطلق البصر على حاسة الإبصار؛ ولذلك جُمع ليعم بالإضافة جميع أبصار المخاطبين، ولعل إفراد السمع وجمع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفة أحد اللفظين مفردا والآخر مجموعا عند اقترانهما، فإن في انتظام الحروف والحركات والسكنات في تنقل اللسان سرا عجيبا من فصاحة كلام القرآن المعبر عنها بالنظم (ابن عاشور، 1984: 26/ 53).

4. ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: 22]، في هذه الآية اقترن السمع بالجلود إلى جوار الأبصار، وهذه الحواس هي أدوات المعرفة التي يتصل بها الإنسان مع العالم الخارجي، وهي وسيلته سواء في الطاعة أو المعصية، وهي تتحول يوم القيامة من أدوات استقبال إلى أدوات إرسال.

وكما ذكرنا في الآيات السابقة جاء السمع مفردا؛ لأنه اسم جنس في قوة الجمع أما الأبصار والجلود فقد جمعت لتشمل جميع المخاطبين، ونلاحظ تكرار النافي (ولا أبصاركم) (ولا جلودكم) مبالغة في الزجر، و(تستترون) لأنّكم "﴿ظَنَنْتُمْ﴾ بِسَبَبِ إنْكارِكِمُ البَعْثَ جَهْلًا مِنكم ﴿أنَّ اللَّهَ﴾ الَّذِي لَهُ جَمِيعُ الكَمالِ ﴿لا يَعْلَمُ﴾ أيْ: في وقْتٍ مِنَ الأوْقاتِ ﴿كَثِيرًا مِمّا تَعْمَلُونَ﴾ أيْ: تُجَدِّدُونَ عَمَلَهُ مُسْتَمِرِّينَ عَلَيْهِ، وهو ما كُنْتُمْ تَعُدُّونَهُ خَفِيًّا، فَهَذا هو الَّذِي جَرَّأكم عَلى ما فَعَلْتُمْ، فَإنْ كانَ هَذا ظَنُّكم فَهو كُفْرٌ، وإلّا كانَ عَمَلُكم عَمَلَ مَن يَظُنُّهُ فَهو قَرِيبٌ مِنَ الكُفْرِ، والمُؤْمِنُ حَقًّا مَن عَلِمَ أنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلى سِرِّهِ وجَهْرِهِ، فَلَمْ يَزَلْ مُراقِبًا خائِفًا هائِبًا" (البقاعي، د.ت: 17/ 172).

5. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: 36]، قيل: معناه يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده، وقيل: يسأل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء (الزيد، 1416: 4/ 525).

ونلاحظ أن كلًّا من السمع والبصر والفؤاد جاءت مفردة؛ لأن السياق موجه للمفرد فكل شخص سيحاسب عن سمعه هو وبصره هو وفؤاده هو على التأويل الأول، أو سمع وبصر وفؤاد كل شخص سيسأل عن صاحبه على التأويل الثاني.

وقد عقد ابن القيم فصلا في تقديم السمع على البصر في أغلب آيات القرآن وذكر ما نقل في ذلك، فهناك من يرى أن السمع أفضل، وهناك من يرى أن البصر أفضل، وتقدم السمع لا يغني، ولكنه بعد ذلك رجح قول ابن تيمية: "وفصل الخطاب أن إدراك السمع أعم وأشمل، وإدراك البصر أتم وأكمل، فهذا له التمام، والكمال، وذاك له العموم، والشمول، فقد ترجح كل منهما على الآخر بما اختص" (ابن تيمية، 1432: 4/ 14).

وهذا القول وافٍ في الفصل في أيهما أفضل، أما بخصوص تقدم أي منهما على الآخر فهو حسب سياق ورودها كما رأينا في الآيات السابقة، أما في مثل هذه الآية فقد يبدأ بالسمع لأنه الأشمل، أو لأنه الأكثر، فما يدركه الإنسان بالسمع أضعاف ما يدركه بالبصر، ومن المعروف في اللغة أنه لا مفاضلة بين المتعاطفين بالواو، إنما هي دقائق يمتاز بها بليغ الكلام، وليس هناك أبلغ من القرآن.

النتائج:

توصل البحث إلى الآتي:

1. غلب على لفظ السمع الوارد بشكل منفرد السمع الأولي المجرد من الفهم.
2. لفظ السمع المنفرد الدال على مستوى السمع الواعي أتى في سياق واحد في آيات متعددة، وهو وصف الكفار بالصمم، وقد جاء منفيًا عنهم، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [النمل: 81].
3. غلب على لفظ السمع المقترن بلفظ العلم ما يرتبط بالنيات وخفايا الأنفس، ولم يجعل الله للناس طريقا للعلم به إلا ما يخبرهم إياه، عن طريق الوحي.
4. غلب على لفظ السمع المقترن بلفظ البصر السياقات في مجال رؤية الناس سواء رؤيتهم في الدنيا، أو الرؤية المؤجلة يوم القيامة.
5. يستخلص من الآيات أن السمع هو بوابة الإدراك ولا سيما إنْ تضافر مع الحواس الأخرى وعلى رأسها البصر، وغالبًا ما يسبقه السمع؛ كونه أعم وأشمل منه.

المراجع

القرآن الكريم.

الأسمر، سهام محمد. (2007). *ألفاظ العقل والجوارح في القرآن الكريم: دراسة إحصائية دلالية* [رسالة ماجستير غير منشورة]، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين.

الآلوسي، شهاب الدين محمود. (1415). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني* (علي عبد الباري عطية، تحقيق ط.1)، دار الكتب العلمية.

البقاعي، إبراهيم بن عمر. (د.ت). *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*، دار الكتاب الإسلامي.

ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم. (1432). *تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية*، (إياد عبد اللطيف القيسي، تحقيق ط.1)، دار ابن الجوزي.

الجرجاني: علي الشريف. (1403هـ). *التعريفات* (ط.1)، دار الكتب العلمية.

ابن جزي، محمد من أحمد الغرناطي. (1416). *التسهيل لعلوم التنزيل* (عبد الله الخالدي، تحقيق ط.1)، دار بن أبي الأرقم.

الجوهري، أبو نصر الفارابي. (1987). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية* (ط.4)، دار العلم للملايين.

الحميري، عبد الواسع. (2013). *نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة* (ط.1). مؤسسة مجد للدراسات والنشر والتوزيع.

الرازي، محمد بن عمر. (1420). *مفاتح الغيب* (ط.3). دار إحياء التراث العربي.

الزيد، عبد الله أحمد. (1416). *مختصر تفسير البغوي* (ط.1). دار السلام للنشر والتوزيع.

صليبا، جميل. (1982). *المعجم الفلسفي*، دار الكتاب اللبناني.

الطبري، محمد بن جرير. (2001). *جامع البيان عن تفسير أي القرآن* (عبد الله التركي، تحقيق ط.1)، دار هجر.

ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984). *التحرير والتنوير*، الدار التونسية للنشر.

عبد الباقي، محمد فؤاد. (1436). *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم* (ط.1). دار الكتب المصرية.

ابن عطية، عبد الحق الأندلسي. (1422). *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز* (عبد السلام عبد الشافي، تحقيق ط.1)، دار الكتب العلمية.

ابن فارس، أحمد. (1979). *مقاييس اللغة* (عبد السلام هارون، تحقيق)، دار الفكر.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (1426). *القاموس المحيط* (ط.8). مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.

القرطبي، محمد بن أحمد. (1964). *الجامع لأحكام القرآن* (أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، تحقيق ط.2)، دار الكتب المصرية.

ابن كثير، اسماعيل بن عمر. (1420). *تفسير القرآن العظيم* (سامي محمد سلامة، تحقيق ط.2)، دار طيبة للنشر والتوزيع.

الكرساوي، أحمد. (2018). *مدخلا إلى نظرية المعرفة*، مركز تكوين للدراسات والأبحاث.

References

al-Qur'ān al-Karīm.

al-Asmar, Sihām Muḥammad. (2007). *alfāẓ al-ʻaql wāljwārḥ fī al-Qur'ān al-Karīm : dirāsah iḥṣā'īyah dalālīyah* [Risālat mājistīr ghayr manshūrah], Jāmiʻat al-Najāḥ al-Waṭanīyah, Filasṭīn, (in Arabic).

al-Ālūsī, Shihāb al-Dīn Maḥmūd. (1415). *Rūḥ al-maʻānī fī tafsīr al-Qur'ān al-ʻAẓīm wa-al-Sabʻ al-mathānī* (ʻAlī ʻAbd al-Bārī ʻAṭīyah, taḥqīq 1st ed.), Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, (in Arabic).

al-Biqāʻī, Ibrāhīm ibn ʻUmar. (N. D). *naẓm al-Durar fī tanāsub al-āyāt wa-al-suwar*, Dār al-Kitāb al-Islāmī, (in Arabic).

Ibn Taymīyah : Aḥmad ibn ʻAbd al-Ḥalīm. (1432). *tafsīr Shaykh al-Islām Ibn Taymīyah* (Iyād ʻAbd al-Laṭīf al-Qaysī, taḥqīq 1st ed.), Dār Ibn al-Jawzī, (in Arabic).

al-Jurjānī : ʻAlī al-Sharīf. (1403h). *altʻryfāt* (1st ed.), Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, (in Arabic).

Ibn Juzayy, Muḥammad min Aḥmad al-Gharnāṭī. (1416). *al-Tas'hīl li-ʻUlūm al-tanzīl* (ʻAbd Allāh al-Khālidī, taḥqīq 1st ed.), Dār ibn Abī al-Arqam, (in Arabic).

al-Jawharī, Abū Naṣr al-Fārābī. (1987). *al-ṣiḥāḥ Tāj al-lughah wa-ṣiḥāḥ al-ʿArabīyah* (4th ed.), Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, (in Arabic).

al-Ḥimyarī, ʿAbd al-Wāsiʿ. (2013). *Naẓarīyat al-Maʿrifah bayna al-Qur'ān wa-al-falsafah* (1st ed.). Mu'assasat Majd lil-Dirāsāt wa-al-Nashr wa-al-Tawzīʿ, (in Arabic).

al-Rāzī, Muḥammad ibn ʿUmar. (1420). *Mafātiḥ al-ghayb* (3rd ed.). Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʿArabī, (in Arabic).

al-Zayd, ʿAbd Allāh Aḥmad. (1416). *Mukhtaṣar tafsīr al-Baghawī* (1st ed.). Dār al-Salām lil-Nashr wa-al-Tawzīʿ, (in Arabic).

Ṣlbyā, Jamīl. (1982). *al-Muʿjam al-falsafī*, Dār al-Kitāb al-Lubnānī, (in Arabic).

al-Ṭabarī, Muḥammad ibn Jarīr. (2001). *Jāmiʿ al-Bayān ʿan tafsīr Ayy al-Qur'ān* (ʿAbd Allāh al-Turkī, taḥqīq 1st ed.), Dār Hajar, (in Arabic).

Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir. (1984). *al-Taḥrīr wa-al-tanwīr*, al-Dār al-Tūnisīyah lil-Nashr, (in Arabic).

ʿAbd al-Bāqī, Muḥammad Fu'ād. (1436). *al-Muʿjam al-mufahras li-alfāẓ al-Qur'ān al-Karīm* (1st ed.). Dār al-Kutub al-Miṣrīyah, (in Arabic).

Ibn ʿAṭīyah, ʿAbd al-Ḥaqq al-Andalusī. (1422). *al-muḥarrir al-Wajīz fī tafsīr al-Kitāb al-ʿAzīz* (ʿAbd al-Salām ʿAbd al-Shāfī, taḥqīq 1st ed.), Dār al-Kutub al-ʿIlmīyah, (in Arabic).

Ibn Fāris, Aḥmad. (1979). *Maqāyīs al-lughah* (ʿAbd al-Salām Hārūn, taḥqīq), Dār al-Fikr, (in Arabic).

al-Fīrūzābādī, Muḥammad ibn Yaʿqūb. (1426). *al-Qāmūs al-muḥīṭ* (8th ed.). Mu'assasat al-Risālah lil-Ṭibāʿah wa-al-Nashr, (in Arabic).

al-Qurṭubī, Muḥammad ibn Aḥmad. (1964). *al-Jāmiʿ li-aḥkām al-Qur'ān* (Aḥmad al-Baraddūnī, wa-Ibrāhīm Aṭṭafayyish, taḥqīq Ṭ. 2), Dār al-Kutub al-Miṣrīyah, (in Arabic).

Ibn Kathīr, Ismāʿīl ibn ʿUmar. (1420). *tafsīr al-Qur'ān al-ʿAẓīm* (Sāmī Muḥammad Salāmah, taḥqīq 2nd ed.), Dār Ṭaybah lil-Nashr wa-al-Tawzīʿ, (in Arabic).

Alkrsāwy, Aḥmad. (2018). *mdkhlā ilá Naẓarīyat al-Maʿrifah*, Markaz takwīn lil-Dirāsāt wa-al-Abḥāth, (in Arabic).

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508